علاقة الرواية العربية بالتاريخ

د/منى بشلم

المدرسة العليا للأساتذة

قسنطينة–الجزائر

الملخص

يتقاطع الخطاب الروائي و الخطاب التاريخي عند نقاط، أهمها الذاكرة الإجناسية والمظهر السردي، وإن كانا يفترقان عند علمية الخطاب التاريخي. نقاط الالتقاء هذه هي التي يسرت اشتغال الرواية على التاريخ في مختلف المراحل التي مرت بها انطلاقا من مراحلها التأسيسية الأولىحين جعلت من المادة التاريخية مادة سردية، كما هو الحال و نصوص سليم البستاني وجورجي زيدان. و حتى حركة الرواية الحديثة حيث تعددت أوجه استثمار الخطاب التاريخي، لتتباين العلاقة بين الرواية و التاريخ تبعا لمدى اعتماد التاريخ ، فما بين طريقة الإضافة و أخيلة التاريخي و أرخنة الخيالي ...تختلف نوعية العلاقة التي تربط الرواية بالتاريخ، لتبقى جميعها أعمالا تجنس على أنها رواية، على الرغم من إثبات تعريف للرواية التاريخية فإن الروائيين يرفضون تجنيس رواياتهم على أنها كذلك – رواية تاريخية – مما يطرح إشكالية تجنيس هذه النصوص و إشكالية الأنواع السردية تحديدا في ظل هذه العلاقة بين ما هو روائي وتاريخي.

Abstract

Novelist discourse and historical discourse intersects at several points, the most important of them may be Genres memory and narrative appearance, although they were separated at the scientific aspect of historical discourse. These are the points of convergence that

facilitated the functioning of the novel on the history in its various stages, through the first foundational stages while used history as narrative material, we can cite the texts of Salim Alboustani and Georgy Zeidan, until the movement of the modern novel, where there were many aspects of investment of the historical discourse, that vary the relationship between the novel and the history on the extent of employment of history, that ranging from

إن كان القول بأن الرواية بشكل عام و الرواية التاريخية تحديدا جسد منفصل عن التاريخ قول مقضي، لا يستدعي الوقوف عنده ، فإن البحث في الشراكة بين الرواية و نوع آخر من فنون القول و هو التاريخ تحقق هدفين أساسيين هما: فهم هذا العنصر الشريك خطابا ووظيفة قبل أن يخضع لآليات التشغيل الجديد ضمن سياق الإنتاجية الروائية. أما الهدف الثاني و المتمحور حول الخطاب الروائي فيتمثل في بناء مسلك خاص بالقراءة،يجعلها ذات بعد نفعي ، دون أن يعني ذلك التضحية بالبعد الجمالي الذي هو شرط طبيعي لكل قراءة أدبية [1] ذلك لأن اعتماد الرواية للمادة التاريخية هو بالدرجة الأولى تحريض للقارئ على استنطاق الوظائف والدلالات أكثر من أي شيء آخر. هذا الاشتغال من الرواية على المادة التاريخية يفتح باب التساؤل حول طبيعة التاريخ هذه التي يسرت التعامل معه روائيا بدأ من المراحل التأسيسية للرواية العربية ، و انتهاء بروايات التأصيل التراثي ، التي لا تكتفي باستلهام المادة الحكائية ، بل تتجاوز ذلك لمساءلة التاريخ ذاته، و إعادة كتابته روائيا.

و السؤال هنا لا يتجه للبحث في العلمية المفترضة للخطاب التاريخي قدر اتجاهه نحو سردية هذا الخطاب كونها نقطة تقاطع أساسية يسرت اشتغال الرواية على التاريخ.

السردي في الخطاب التاريخي:

قبل البحث في علاقة التاريخ بالسرد كان لزاما التدقيق في طبيعة هذا العلم،غير أن دراستنا هذه لن تعود هذه إلى نقطة الانطلاق الأولى و هي جدلية نسبة التاريخ للعلم أم للفن ، بل إنها تأخذ بالرأي التوفيقي الذي لا ينفي علمية التاريخ مع ذلك يقر بخصوصيتها و أن « التاريخ و إن كان لا يمكن اعتباره علما يقينيا على نحو ما تعتبر الآليات و البصريات وحتى علما النبات و وظائف الأعضاء، إلا أنه من حيث طرائقه ونتائجه آخذ ...بشبه قوي جدا من العلوم المذكورة، مما يجيز لنا أن ننحله اسم **العلم**»[2]

و لا ينبغي أن نستكين لمفهوم العلمية المتداول حين يتعلق الأمر بالتاريخ ،بل إن الأستاذ و.س.جيفنزS.W.Jevenonsيرى أنه من السخف أن نفكر في التاريخ على أنه علم بالمعنى الصحيح [3] ، لأن التاريخ يتوسل الفنية و أما العلمية فلا تعطينا منه « سوى العظام المعروقة اليابسة ،و أنه لا مندوحة من خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام و بعث الحياة فيها ...و أن ما يتصف به رجل العلم من حياد جاف لا محل له.و لا يمكن أن يطاق في مقام المؤرخ.»[4] الذي تتوسط خطابه الكتابة، و يمارس عليه حدث بعينه جاذبية خاصة تجعله يستحق **التأرخة**. فالأحداث لا تؤرخلمجرد وقوعها بل إن المؤرخين متفقون على أن «التاريخ هو مجموع العوارض و الطوارئ التي كانت تستحق أن تحفظ. و ما لم يذكر فلسبب عدم أهميته أو كما قيل...لأنه لم تكن له نتائج ظاهرة»[5] فالحدث التاريخي لا يكتب لمجرد وقوعه ، بل إن حدثا بعينه يستفز المؤرخ و«يتبأر و يصبح أكثر الأحداث إلحاحا على الانكتاب ، ثم يرسل إشعاعه ليصبح قطبا لدائرة أكبر ومركزا لمحيط أرحب يسعى المؤرخ على إثر ذلك إلى الإحاطة به ؛ مما يجعلنا نزعم أن التاريخ هو تجميع لهذه اللحظات المشعة و تركيب لها ، أوما يسميه بول فين "العقدة التي تنتج الحكاية"»[6] يعمل المؤرخ على توضيب هذه الأحداث وتنظيم ظهورها مما يعني أن الواقعة بين يدي « الصناعة التاريخية هي غير "**الواقعة**" بين يدي الواقع التاريخي ، فالأولى مجهود خطابي مسنود بمنظور و وعي فرديين لإخراجها كتابيا أو شفويا، و الثانية وقائع مسجاة في رحم الغيب »[7] خلفت آثارا دالة عليها ، و الصياغة اللغوية لهذه الوقائع حتى و إن تمت بلغة وصفية تنزع إلى مرجعها ، محاولة الالتحام بالواقعية أو على الأقل تقلص درجات الانزياح الشعري لصالح المرجعية ، فإنها – لغة الصياغة – محكومة بنظام الصوغ اللغوي وهو فردي عند كل مؤرخ.[8]

كما و أن تقديم الحدث التاريخي يخضع لتأثير الزمن فينتج لنا ثلاث وقائع خطابية هي:

أ–تسريع التاريخ فكلما اقتربنا من زمن المؤرخ ازداد ضغط التلفظ و تثاقل السرد جمع عدة قرون في فصل واحد ،بينما تخصص فصول كثيرة للمرحلة القريبة من المؤرخ.

ب – اللاتواقت مسألة عدم تناظر الزمنين التي يتسبب بها الاستطراد حيث يسمح بتعميق الزمن ففي كل مرة يتم فيها إقحام شخصية جديدة ، يقوم المتلفظ بالتوغل في الزمن صعودا للتذكير بأجدادها قبل أن يعود إلى دواعي إقحامها. مما يذكرنا بالاستطراد الحكائي.

جـ – افتتاح الخطاب حيث يقوم الوصل المنظم بتكسير الزمن التتابعي للتاريخ مثيرا لجملة من الإشكالات تتصل بافتتاح الكلام الذي هو في الوقت نفسه بداية التلفظ و بداية المادة المحكية (متى؟ كيف؟ من أين نبدأ...)[9]

هي السمات الفنية لا تستطيع الكتابة التاريخية التخلص منها، حتى و هي تنزع نحو العلمية، بعد أن التبست بالأساطير في مرحلة سابقة يسميها العروي بعهد المرويات السماعية ، عهد أساطير الأولين [10] و الفصل بين خصائص المرحلتين صعب حتى و إن تخلى التاريخ نهائيا عن الأساطير فإن « المفاهيم و المفردات بقيت على حالها و إن حملت معاني جديدة ، هذا هو أصل الالتباس ، رواسب مضمنة في ثنايا اللغة تتحكم في الأذهان»[11]هي رواسب تعكس الذاكرة الإجناسية للتاريخ الذي ارتبط بالسرد في مراحله الأولى ، و لم يتخلص منه حتى و هو ينزع للعلمية ، بل إنه ما يزال مرتبطا به بوشائج قوية منها ما يرتبط بتأثير الزمن الذي ينتج وقائع خطابية نجد مقابلها في الدراسات السردية ، إضافة إلى مظهرين سردي آخرين هما السارد أو المؤرخ ، و المسرود وهو المادة التاريخية، و هي وقائع الماضي، التي يتحكم المؤرخ بانتقائها و طريقة تنظيمها و عرضها .

أما المعرفة التاريخية فإن بول ريكور يرى أنها تنبع من فهمنا السردي و هذا دون أن تفقد شيئا من طموحها العلمي . [12] و يحدد الفهم السردي بالتسليم بوجود ألفة مع الشبكة المفهومية المكونة لدلاليات الفعل .ثم إنه يتطلب ألفة مع قواعد التأليف التي تحكم النسق التعاقبي للقصة، [13]القائمة على حبكة هي في معناها الواسع تواشج بين جمل الفعل.

يسرت هذه الخاصية السردية للتاريخ اشتغال الرواية عليه ، كونها هي الأخرى ترتكز على السرد ، ناهيك عن أن التاريخ وفر للرواية المادة الحكائية المتمثلة في الفعل الإنساني و إن كان مرتبطا بزمن ماض، فأعادت صياغته بشكل فني ، تحرر من القيود التي تفرضها علمية التاريخ ، و توخيه للموضوعية ، فكأن ارتبطت الرواية العربية التأسيسية بالتاريخ، و وسمت بالرواية التاريخي.

علاقة الرواية التاريخية العربية بالتاريخ :

الرواية التاريخية هي نتيجة امتزاج الرواية بالتاريخ ؛ إذ تتخذ الحدث التاريخي مرجعية للحدث الروائي ، مما ينتج مرجعيتين داخل النص الواحد الأولى حقيقية متصلة بالحدث التاريخي والثانية تخييلية مقترنة بالحدث الروائي، غير أن التعامل مع التاريخ على أنه

مكون روائي لا يعني اعتماد التاريخ بديلا للتخييل،و كأن الرواية التاريخية بتكامل مستويات البناء و التجنس لا تكمن في طبيعة الأحداث التي تعرض لها بل في طريقة تقديمها [14] لتنحسر العلاقة بين الرواية و التاريخ في «علاقة يتم في ضوئها تمثل البؤرة السردية: الشخصية، الزمن ، الفضاء..»[15] دون أن تقتصر على إعادة كتابة التاريخ بطريقة روائية فحسب بل قد ترتبط بالتاريخ للتعبير عما لا يقوله التاريخ ، فتقدم «توظيفات مختلفة في الفهم و القصد ،لأنها تختار كيفية محددة في القول و التركيب و إنتاج التخييل »[16] تجعل التاريخ يأخذ شكلا جديدا فيصبح عنصرا فنيا في الرواية خاضعا للروائي، و بعبارة أدق خاضعا لذاتية الروائي.

يرى لوكاش أن الرواية تكون رواية تاريخية حقيقية حين تثير الحاضر ، و يعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات[17]و هو بهذه الرؤية يوضح واحدا من أسباب اللجوء إلى أحداث الماضي ، ألا و هو إثارة الحاضر من خلاله ، بالإيقاظ الشعري للناس الذي برزوا في تلك الأحداث، لنعيش مجددا الدوافع الاجتماعية و الإنسانية التي أدت بهم إلى أن يعيشوا ويفكروا و يتصرفوا كما فعلوا في الواقع التاريخي [18] . غير بعيد عن هذا التصور يؤكد ألفرد شيبارد أن الرواية التاريخية هي عودة للماضي بغية إعادة إنتاجه ، فيتناوله الروائي بصورة خيالية ، يتجاوز بها حدود التاريخ [19]، و بتعريف أكثر انفتاحا يحددها ستودارد بأنها سجل لحياة الأشخاص أو لعواطفهم تحت بعض الظروف التاريخية ، مركزا على فنية هذه الرواية أكثر من تاريخيتها ، غير أن تحديدا بهذا التعريف ستدخل كثير من الروايات دائرة الرواية التاريخية لأنها تعود إلى الماضي سواء كان قريبا أو بعيدا ، و حتما ستذكر الظروف المؤثرة في حياة الشخصيات و الموجهة للأحداث. [20] بتحديد أكبر يعرفها بيكون بأنها كل رواية تحاول إعادة تركيب الحياة في فترة من فترات التاريخ ، و هو بهذا يضيف عنصرا جديدا هو الفترة التاريخية المحددة التي يُعمل فيها الكاتب أدواته الفنية لإعادة إظهارها فنيا [21]، بشكل موح بعيد عن الوثائقية. فالرواية التاريخية تعتمد الزمان الموثق،والمكان المحدد و الحادثة المعروفة ، فتستثمر جهد المؤلف الذي حقق الواقعة، و تتقاطع معه في الوقت ذاته و هي سمة تميزها عن كل رواية أخرى قد تستثمر التاريخ.[22]و لتفادي المزالق التي وقعت فيها التعريفات السابقة ، يقدم الدكتور نضال الشمالي تعريفا يجمل فيه أهم مميزات الرواية التاريخية حيث يعدها خطابا أدبيا « ينشغل على خطاب تاريخي مثبت سابق عليه انشغالا أفقيا يحاول

إعادة إنتاجه روائيا ، ضمن معطيات آنية ، لا تتعارض مع المعطيات الأساسية للخطاب التاريخي.و انشغالا رأسيا عندما تحاول إتمام المشهد التاريخي من وجهة نظر المؤلف إتماما تفسيريا أو تعليليا أو تصحيحيا ، لغايات إسقاطية أو استذكارية أو استشرافية»[23] و هو تعريف يجمع أهم مميزات الرواية التاريخية ، تمييزا لها عن أي رواية قد تعتمد التاريخ، فعودة الرواية التاريخية للتاريخ تستلزم وضوح الحقبة التي تشتغل عليها ، لتكون هذه الأخيرة حقبة موثقة،لتشكل مادة حكائية للرواية يعيد الروائي تشكيلها فنيا ، بأن يربط المادة الحكائية التاريخية بالحاضر و رهاناته ن وفق رؤياه المحددة.

ظهرت أولى الروايات التاريخية في أوروبا مطلع القرن التاسع عشر ، على يد الكاتب الاسكتلندي والتر سكوت (1771–1882م) بعدد من الروايات أهمها ويفرلي عام 1814م ايفانهو سنة 1819م و الطلسم سنة 1825م ليتبعه عدد من الروائيين في انجلترا وأوروبا عموما ، [24] و هناك من يرفض نسبة ظهور الرواية التاريخية إلى سكوت و يرون أن الرواية التاريخية الحديثة ظهرت مع الكاتب الأمريكي ستيفن كرين صاحب رواية "شارة الشجاعة الحمراء" و أن العالم لم يعرف الرواية التاريخية قبل رواية "الحرب و السلام" للكاتب الروسي ليو تولستوي (1865–1869م) التي أفصحت عن معرفة كبيرة بتاريخ الأسرتين اللتين تناولتهما و عن غزو نابليون لروسيا، و عن قوة الخيال الذي يمتلكه الروائي، مما مكنه من إنتاج رواية فنية تاريخية[25]

أما الرواية التاريخية العربية فإن مسار تطوراها كان مختلفا عن نظيرتها الغربية، فإذا كانت الأولى تطورا لفن الرواية،فإن المهد الأول للرواية التاريخية العربية كان التاريخ ، ثم اتخذت مسارا تطوريا مر بمراحل ثلاث.

المرحلة الأولى:

بالعودة إلى المحاولات الروائية الأولى نجدها حاولت كتابة نص روائي عربي بين يدي التاريخ، فمنه أخذت موضوعها و شخصياتها، و حتى الحدث الروائي ، و نرصد ذلك عند كتاب مثل لسليم البستاني في روايته "زنوبيا" 1871م، و "بذور" 1872م، و "الهيام في فتوح الشام" 1874م و جورجي زيدان (1861–1914م) الذي ألف سلسلة من الروايات التاريخية . لتزدهر الرواية التاريخية و هي تشتغل على التاريخ العربي الإسلامي في عصوره المختلفة فنجد أعمال علي جارم "شاعر الملك"،"فارس بني حمدان"، "هاتف من الأندلس" ، "مرح

الوليد"، الشاعر الطموح"، "غادة رشيد"، و مجموعة آثار فريد أبي حديد "أبو الفوارس عنترة"، "المهلهل سيد ربيعة"،الملك الظليل"،"الوعاء الرمزي"، وروايات أعلي أحمد باكثير "وا إسلاماه" ، "سلامة القدس" ، "الثائر الأحمر" و روايات عبد الحميد جودة السحار "[26] و محمد سعيد العريان الذي اقتصر على تاريخ مصر الإسلامي ، و خاصة عهد الأيوبيين و المماليك في روايته "قطر الندى"، "شجرة الذر" و "على باب زويلة" [27]

اتجهت روايات الجيل الأول إلى إعادة كتابة التاريخ بصورة شائقة، تهدف إلى تثبيت أحداثه فيحصل أن يخرج الكاتب عن أصول السرد القصصي في مواضع كثيرة، و يشعر القارئ أن الكاتب يهمه إحكام إيراد التفاصيل التاريخية أكثر مما يهمه إحكام الخيال في خلق صورة حية لذلك المجتمع ، و قد يستطرد أحيانا للمادة التاريخية التي يستعين بها الكاتب فيوردها كما جاءت في كتب التاريخ و لولا عنصر التشويق و المماطلة ، و خلقها لبنيات موازية في أحايين كثيرة مثل بنيات الغرام عند جورجي زيدان مثلا ،لأصبحت هذه الأعمال عرضا تاريخيا جافا[28].

و السبب وراء اهتمام الكتاب الكبير بالجانب التاريخي ، هو الظروف التي كتبت فيها هذه الروايات التي أخرجت من دائرة الرواية ، و وسمت بالتعليمية فهؤلاء الرواد لم يدخل في اعتبارهم أنهم يقدمون إلى قرائهم رواية ، و إنما كان هدفهم تعليم هؤلاء القراء و تثقيفهم[29]، بالنظر إلى ظروف مجتمعهم في تلك الفترة.

غير أن المادة التاريخية عند الاشتغال عليها روائيا لم تسلم من ذاتية الكتاب، خاصة مع الكاتب المسيحي الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فيسير بالأحداث نحو أهداف خاصة ، فزيدان كان يوارب في تشويش الحدث التاريخي بنزعاته الخاصة أما فرح أنطوان فلم يكن يستتكف عن إظهار تعصبه صريحا؛ فجميع أبطاله كانوا من غير العرب المسلمين ، لم يكن يكتفي بتقديم تاريخ زائف بل يطمح إلى تنمية إيديولوجيا نقيضة للقومية العربية والإسلامية.أما زيدان فيجعل بنياته الروائية مشدودة إلى نسق الحكي الكلاسيكي خصوصا مظهره التشويقي ...يجعل أبطاله يعيشون ظروفا عصيبة و شديدة الحرج ، ثم يصوغ أحداث التاريخ صياغة تركيبية تستجيب لهذا البناء ، ثم يجعل الفرج دائما على يد القساوسة و الرهبان ، مما يجعل رواياته تحتمل نفسا تبشيريا خفيف الأثر و إن كان عميق الدلالة.[30]

هذه الرواية التأسيسية ارتكزت بشكل كلي على التاريخ ، بل إنها إعادة تسجيل للتاريخ سرديا ، مع محاولة للتقييد ولو بمجرياته لغايات تعليمية، إخبارية،و يمكن القول إن الحكائي تقدم على السردي الفني ، و أنها روايات لم يعتن بتوظيف التاريخ لمخاطبة أسئلة الواقع

المرحلة الثانية:

بعد جيل لزم حدود التاريخ و اتخذ الرواية وسيلة لا غاية، تتطور الكتابة الروائية العربية مستفيدة من تراكم التجارب، و ينتج جيل جديد أقل تبعية للتاريخ يمثله نجيب محفوظ الذي عاد إلى تاريخ مصر الفرعوني و اكتشف فيه مادة خصبة لموضوع أعماله. استهل بها مساره الإبداعي و هي"عبث الأقدار"1939م، "رادوبيس"1943م، و "كفاح طيبة"1944 التي يعتبرها البعض القمة التي وصلت عندها الرواية التاريخية عندئذ [31] .

كان نجيب محفوظ يكشف في رواياته التاريخية منظوره للعالم و معنى الرواية التي ترحل إلى أزمنة مختلفة و تتمسك بمأساة الإنسان. فهو إذ يكتب عن مصر القديمة إنما يفعل ذلك احتجاجا على الحاضر و بحثا عما يضيء وجوهه،فوضع في الماضي أسئلة الحاضر ، على الرغم من إقامته لرواياته على مادة معرفية دقيقة ، تعرف الماضي قبل أن تعيد خلقه ، فقد عكست الحاضر و السلطة التي تعبث به.[32]

في هذه المرحلة لم يعد الحرص في كتابة رواية تاريخية يقتصر على إبداع نص تاريخي يحمل مسمى العصر التاريخي و أدائه و صوره و عبقه بل تجاوزه إلى توظيف المادة التاريخية توظيفا فنيا بالدرجة الأولى ، حتى لتبدو هذه المرحلة مرحلة الموازنة بين ما هو تاريخي و ما هو فني ، فالتاريخ يسكب في قالب روائي واضح المعالم، يحقق أهدافه ويستعرض وجهة نظره، كما ظهر في رواية نجيب محفوظ[33] فمثلت بذلك حلقة وصل في تطور الشكل الروائي ، فيمكن القول أن التاريخ وفّر للرواية العربية فرصة التمرس ،إلى أن طفا تشبع هذا الشكل الروائي بعد طول تكرار لبنياته و تيماته، مما أدّى إلى تحول الرواية إلى الحياة المعيشة.

المرحلة الثالثة:

هي مرحلة الرواية الحديثة، تحديدا تلك التي اختارت العودة للتراث و منه التاريخ مسلكا تجريبا، و قد برزت أسماء كثيرة في هذا المنحى نذكر منها على سبيل المثال جمال الغيطاني

و يوسف العقيد في مصر ،و واسيني الأعرج وبوجدرة في الجزائر ، و بنسالم حميش ، أحمد توفيق، والميلودي شلغوم في المغرب. و هم كتاب عملوا على استثمار المادة التاريخية من منظورهم الخاص، مبتغين وراء ذلك إسقاط الماضي على الحاضر، و إيهام القارئ أن الماضي لم يعد ذلك المكون المنقطع عن الوجود البشري بل إنه يمتد و يستمر في حاضر التاريخ كما في مستقبله[34]

و بتعدد الروائيين المشتغلين على المادة التاريخية تعددت طرق الاشتغال عليها، و من هذه الطرائق سنكتفي بثلاث هي:

طريقة الإضافة: حيث لا يكتفي الروائي بما كان من واقع الأحداث بل يعمد إلى إضافة معطيات جديدة تعد مصدر انزياح النص اللاحق عن السابق، من ذلك مثلا "ألف ليلة وليلتان" للروائي السوري هاني الراهب، و التي منطلقها "ألف ليلة و ليلة" و هي رواية ترصد الظواهر المجتمعية التي أدت للهزيمة (هزيمة 1967م) فتتوالى في الرواية كل سلبيات عالم "ألف ليلة و ليلة" من استبداد و جور ،و قمع...فيقابل الروائي بين تلك الأزمنة و الحاضر فيجد الماضي مستمرا في الحاضر بالمظاهر نفسها، مما أدى إلى اختلاط ملحوظ بين أزمنة الماضي و الحاضر.

طريقة "أخيلة التاريخي":Fictionnalisation de L'historique

نأخذ مثالا عليها رواية الزيني بركات لجمال الغيطاني الذي عاش هزيمة بلاده في نكبة 1967م كما عاش ابن إياس هزيمة المماليك أمام العثمانيين ، و كتب عن الزيني الذي مثل شخصية انتهازية التي استرعت انتباه الغيطاني الذي لاحظ وجود نموذج للمثقف الانتهازي، تكرار التيمة يسر الاشتغال التخييلي على المادة التاريخية.

و هو ما ينسحب أيضا على توظيف التاريخ عند بنسالم حميش في روايته مجنون الحكم حيث استوحى شخصية أبي علي منصور الملقب بالحاكم بأمر الله مستلهما فترة زمنية من التاريخ السياسي لمصر الفاطمية.

طريقة أرخنة الخيالي Historification du fictif:

في روايتيه "جارات أبي موسى" و "غريبة الحسين" يحرص أحمد التوفيق على انجاز عملية مضاعفة تضيف غلى أخيلة التاريخي عملية أخرى هي أرخنة الخيالي فالرواية من منظوره

الخاص تبدأ من حكاية متخيلة يحاول أن يضفي عليها مظهرا تاريخيا عن طريق ربطها بالشروط الحضارية لمرحلة تاريخية معينة[35]

في هذه المرحلة يصبح تجنيس الرواية بأنها رواية تاريخية إشكاليا ، فالرواية الحديثة التي استثمرت التاريخ بطرق متنوعة، تختلف عن الرواية التاريخية التي كتب زيدان، و للتمييز بينهما يضع رياض محمد وتار جملة من الملاحظات أهما أن التاريخ في الرواية التاريخية يهيمن بخصائصه على الرواية و يطبعها بطابعه ، على مستوى الشخصيات، و مادة السرد، و البيئة و طريقة السرد. إذ تتميز الشخصية في الرواية التاريخية بأنها لا تحيل إلا على ذاتها كونها شخصيات محددة مسبقا و معروفة تاريخيا،مكتملة النمو لا تتبدل و لا تتغير، بل تبقى أسيرة تاريخيتها،أما الرواية التي توظف التاريخ فإن الشخصيات فيها لا يتم نسخها بل يبني عليها الروائي شخصية جديدة تستمد من الماضي ثم تقطع الصلة به، فلا تبقى أسيرة مرجعيتها التاريخية بل تتصرف وفق ما يمليه عليها السرد الروائي.

تراعي الرواية التاريخية التسلسل الزمني في عرض الأحداث، بينما تتحرر منه رواية توظيف التاريخ، حتى و هي تعرض الأعوام و السنين التي وقعت فيها الأحداث، و تعمد إلى تحطيمه و الخروج عليه.

يهيمن ضمير الغائب على السرد في الرواية التاريخية ، و كأننا أمام مرخ يروي بضمير الغائب أما الرواية الموظفة للتاريخ فإنها تخلصت من هيمنة ضمير الغائب ، باستخدام ضمائر متعددة بهدف اكتناه أعماق الشخصيات، و تقديمها من زوايا متعددة.[36]

غير أن هذه الملاحظات التي أوردها الدكتور محمد رياض وتار لا تحل إشكالية النوع السردي الذي يمكن من تصنيف الروايات ، لأنها لا تعدو كونها فروقا بين الرواية التقليدية و الرواية الحديثة بشكل عام، و لا تصلح مقاييس للتمييز بين نوعين من الرواية التي تشتغل على التاريخ، خاصة و أن الروائيين المعاصرين يرفضون تصنيف أعمالهم على أنها روايات تاريخية ، فعبد الرحمن منيف مثلا يكتب :« أما "مدن الملح"،فليس سهلا أن نطلق عليها رواية تاريخية و نكتفي بهذه التسمية لأن أحداثها و تأثيرات هذه الأحداث لا تزال تجري أمام أنظارنا ،أي الآن و على امتداد المنطقة العربية »[37] ، فمنيف يرى فرقا جوهريا بين روايته والرواية التاريخية ، و هو ما ذكرناه سابقا بأن الرواية التاريخية عند الروائيين الجدد تقدم التاريخ على أنه ممتد حتى الحاضر.

و لحل هذا الإشكال يقترح الدكتور عبد الله إبراهيم التحول من اعتماد مصطلح الرواية التاريخية نحو اعتماد مصطلح التخييل التاريخي و يعرفه بأنه «المادة التاريخية المتشكّلة بواسطة السرد، وقد انقطعت عن وظيفتها المرجعية واكتسبت وظيفة جمالية؛ فأصبحت توحي بما كانت تحيل عليه لكنها لا تقرّره، فيكون التخيّل التاريخي من نتاج العلاقة المتفاعلة بين السرد المُعزّز بالخيال والتاريخ المُدعّم بالوقائع، وقد ظهر على خلفية من أزمات ثقافية لها صلة بالهوية، والرغبة في التأصيل»[38] و هو يرى أن هذا الاستبدال يدفع بالكتابة السردية التاريخية إلى تخطّي مشكلة حدود الأنواع الأدبية ووظائفها، و يفكك ثنائية التاريخ والرواية، ليعيد دمجهما في هوية سردية جديدة.

كما أنه سوف يتجاوز أمر البحث في مدى توفر الكتابة على مبدأ المطابقة مع المرجعيات التاريخية، ومدى الإفراط في التخيلات السردية. و ينفتح على الكتابة الجديدة التي لم تعد حاملة للتاريخ، ولا معرّفة به، إنما باحثة في طياته عن العِبر المتناظرة، والتماثلات الرمزية، والتأملات، والمصائر، والتوترات، والتجارب، والانهيارات القيمية،والتطلعات الكبرى. كل هذه المسارات الكبرى في "التخيّل التاريخي" تنقل الكتابة السردية إلى تخوم رحبة للكتابة المفتوحة على الماضي والحاضر بالدرجة نفسها من الحرية والاهتمام[39].و هو بهذا يحل إشكالية النوع السردي التي تواجه الباحث إذ يروم تصنيف هذه الروايات التي تتخذ من التاريخ مادة لاشتغالها السردي، و يبين من جهة ثانية نوعية العلاقة التي تربط الرواية التاريخية المعاصرة بالتاريخ فهي لم تعد تعتمد المادة التاريخية لأغراض تعليمية ، بل إنها تعتمدها لغرض نفعي ، تصور من خلالها الحاضر و المستقبل ، لأن الروائي المعاصر يرى بامتداد تأثير الماضي على الحاضر و المستقبل ، كما أنها تستفيد من خاصية تميز التاريخ دون غيره و هي العبرة، التي تعرضها الرواية بعد أن حفل بها التاريخ . غير أن الرواية المعاصرة لا تكتفي بالاستفادة من التاريخ بل إنها تسائله ، و تعيد كتابته، لتفضح ما سكت عنه التاريخ و هو ما نجده خاصة في روايات واسيني الأعرج ، إذ يعمد إلى مساءلة التاريخ و التشكيك في موضوعيته ، و يسرد تاريخا آخر على لسان شخصيات تنتمي للهامش و لا تؤرخ للسلطان ، و لا تؤرخ للمنتصر.

الهوامش :

[1]: عبد السلام أقلمون، الرواية و التاريخ، سلطان الحكاية و حكاية السلطان ، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، 2010، ص 5

[2]: جورج هرنشو ، علم التاريخ ، ت: عبد الحميد عبادي ،دار الحداثة،بيروت،1988، ص138

[3]: المرجع نفسه،ص9

[4]: عبد السلام أقلمون، الرواية و التاريخ،ص 10.

[5]: عبد الله العروي ، مفهوم التاريخ ، الألفاظ و المذاهب، المركز الثقافي العربي ، المغرب، ط 4، 2005،ص35

[6]: المرجع السابق ، ص 26

[7] : عبد السلام أقلمون، الرواية و التاريخ، ص 20

[8]المرجع نفسه، ص 21

[9]: المرجع نفسه، ص 23

[10]: عبد الله العروي ، مفهوم التاريخ ، ص 35

[11] :المرجع نفسه، ص 35

[12]: بول ريكور ،الزمان و السرد ،الحبكة و السرد التاريخي، ت:سعيد الغانمي ، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت، 2006، ج1، ص 149

[13]: المرجع نفسه،ص 102

[14]: عبد الفتاح الحجمري ، هل لدينا رواية تاريخية ، مجلة فصول مج 16،ع3، شتاء 1997، ص 62

[15]: عبد الله الخطيب ، روايات باكثير قراءة في الرؤية و التشكيل ، دار المأمون ، عمان ، 2008، ص 16

[16]: المرجع نفسه، ص 16

[17]: جورج لوكاش ، الرواية التاريخية، ت: صلاح جواد الكاظم، وزارة الثقافة و الإعلام، العراق، ط2 ،1986 ،ص 89

[18]: المرجع نفسه، ص 46

[19]: نضال الشمالي ، الرواية و التاريخ ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية،عالم الكتاب الحديث،جدارا للكتاب العالمي ،الأردن ،2006،ص 112

[20]: المرجع نفسه، ص 113

[21]: المرجع نفسه، ص ص 113،114

[22]: المرجع نفسه، ص 115 ، نقلا عن هشام غرايبة : عن التاريخ و الرواية ، مجلة البيان جامعة آل البيت ، م2،ع2، ربيع 1999، ص 81

[23]: نضال الشمالي ، الرواية و التاريخ،ص 117

[24]: عبد الله الخطيب ، روايات باكثير قراءة في الرؤية و التشكيل، ص 18

[25]: المرجع السابق، ص ص 119،120

[26]: محمد الباردي ، الرواية العربية و الحداثة، دار الحوار ، سورية ، ط2 ، 2002، ص 19

[27]: نضال الشمالي ، الرواية و التاريخ، ص 120

[28]: عبد السلام أقلمون، الرواية و التاريخ، ص ص106، 107

[29]: عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية في مصر (1870–1934)، دار المعارف، القاهرة، 1963،ص 51

[30]: المرجع السابق،ص 114

[31]: محمد الباردي ، الرواية العربية و الحداثة،ص19

[32]: فيصل دراج،الرواية و تأويل التاريخ،نظرية الرواية و الرواية العربية، المركز الثقافي العربي،المغرب،2004،ص ص 134،135

[33]:نضال الشمالي ، الرواية و التاريخ، ص ص 121، 123

[34]: عبد الملك أشهبون ، آليات التجديد في الرواية العربية الجديدة،دار ما بعد الحداثة،فاس 2005،ص 87

[35]: المرجع نفسه، ص ص 87،88

[36]: محمد رياض وتار : توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ،إتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2002 ص 106

[37]: سعيد يقطين ، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود و الحدود، رؤية للتوزيع و النشر ، القاهرة ، 2010، ص 210

[38]: عبد الله إبراهيم ، صحيفة العرب القطرية، الأربعاء2010/4/28

[39]: المرجع نفسه.